عنوان المحاضرة الثانية :

خصائص السرد العربي القديم

عنوان المحاضرة الثانية : خصائص السرد العربي القديم

نتطرق للحديث عن خصائص السرد العربي ثم نذكر أبرز الأنظمة المتحكمة في بنية النصوص السردية العربية القديمة

أولًا– خصائص السرد العربي القديم:

في البداية نشير إلى اختلاف النصوص السردية العربية القديمة ، ومن الصعوبة جمعها في خصائص موحدة ،ومع ذلك نذكر بعض الخصائص الفنية، التي ظهرت في النصوص السردية العربية القديمة ، ومنها :

1–المقدمة الإسنادية :

نعني بالمقدمة الإسنادية تلك الجمل الاستهلالية المتكررة في بداية النصوص السردية، وهي تتمتع بتأثير خاص في نفس المتلقي،وللمقدمة الإسنادية أهمية كبيرة،فهي تقع في مستهل القصة،وأول مايواجه الملتقي،ولذلك حرص الأدباء على انتقاء مقدماتهم الإسنادية في قصصهم،وظهرت المقدمة الإسنادية في معظم النصوص السردية ،فنجد ابن المقفع قد «أسند سرد قصصه في كليلة ودمنة إلى فاعل مجهول في كل في كل حكاية في عبارة "**زعموا**».

تعد المقدمة الإسنادية ضرورية في بعض القصص الخرافية ،وذكر ابن المقفع مقدمته بصيغة المجهول لتتخلص من تبعات سرد الحقائق «وافتتحت شهرزاد حكاياتها بعبارة "بلغني أنّ"،وكذلك نجد عبارة "كان يامكان"،التي نجدها في مطلع بعض القصص الشعبية،وعبارة"حدثنا عيسى بن هشام"الواردة على رأس كل مقامة من مقامات الهمذاني،وعبارة "حدثني" عند الجاحظ،وهي تشترك في أنها مجهولة راوي الخبر ،وحرص السارد العربي القديم على احترام افتتاحية محدودة تتكرر بصفة ملحوظة،فهي تؤدي دورًا يشبه ذلك الذي كانت تؤدي جملة"افتح ياسمم"الشهيرة في قصة علي بابا والأربعين لصًا،إذ تفتح أمام المتلقي أبواب العالم،الذي يخلفه العمل الأدبي».

نلاحظ اختلاف في صيغة المقدمة الإسنادية بين الجاحظ وابن المقفع وشهرزاد، وهو مايُفسَّر باختلاف بنية الحكايات المسرودة.

2– سمة الفكاهة :

مماهومعلوم أنه قد توجد الفكاهة في بعض القصص العربية«وصارت الفكاهة فنًا من فنون القول،وذوق الفكاهة يغلب على كتاب القرن الرابع الهجري».

ومن أشهر أدباء الفكاهة بديع الزمان الهمذاني، والجاحظ كثيرًا ماكان يستخدم الإطار الفكاهي في حكاياته ليوجه نقده الهادف لعامة الناس،وحرص الجاحظ في كثير من مؤلفاته على إيراد النوادر والطرائف «وأقاصيص الجاحظ الفكاهية تطالعنا على أسلوبه في صياغة ذلك اللون الممتع من ألوان أدبه الفكاهي ،إذ نلمس فيها طرافة الحدث ،واتقان الحبكة القصصية وجمال السرد ودقة الوصف وبراعة التصوير ».

تتجلى الفكاهة في ثوب الدعابة والمزاج ،والغاية من ذلك الترويح عن المتلقي وإمتاعه،كثر استخدام الفكاهة في القصص الاجتماعي عند الجاحظ «وتبرز الفكاهة موضوعًا من موضوعات الحياة الاجتماعية في العصر العباسي كيف أنها عرضت لوجه نظر هذا المجتمع من خلال النصوص النثرية الهازلة ،التي عبرت عن وجهة نظر أصحابها..فكانت الفكاهة في بعض مرادها الإضحاك تنفيسًا عن هذه النفوس».

تعد الفكاهة لون من ألوان التعبير شمل سرديات العصر العباسي ،لما ظهر في المجتمع العباسي من ظواهر اجتماعية دعت الأدباء لمعالجتها والتعبير بأسلوب الفكاهة.

3- أسلوب السخرية :

انتشر استخدام أسلوب السخرية عند الأدباء «وطبعت السخرية معظم الأعمال السردية في العصر العباسي فظهرت عند أبي العلاء المعري في رسالته الغفران ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني، ولايتردد الجاحظ في إلحاق العقاب بشخصياته القصصية السيئة والمتردية والسخرية منها دعيًا المتلقي إلى مشاركته وجهة نظره».

حصل توظيف السخرية عند الأدباء لغايات مختلفة، والهدف منها هو عرض الأديب لنقده في قالب فني ساخر وسادت السخرية معظم قصص العصر العباسي متزامنة مع انتشار المجون واللهو في المجتمع «وسخر الجاحظ من كل تصرف غريب،ومن كل قول عجيب ..فلا عجب أن وجدنا تيار السخرية يسري في كل كتاباته».

إن الجاحظ عندما يسخر من شخصياته ، فهو يوجه نقدًا لاذعًا لمجتمعه ،وحاول معالجة ظواهره السلبية.

4-خاصية العجائبية:

ظهرت صفة العجائبية في بعض النصوص السردية العربية القديمة، فنجد سمة العجائبية في الحكايات الخرافية والشعبية وأخبار المهشمين من شطار ومغامرين ، وكذلك نجد أنَّ «سمة الغرابة القابلة للتفسير العقلي قد شكلت معيارًا في صياغة فن الخبر عند الجاحظ».

نذكر من الأمور الخارقة للعادة في القصص الخيالي العربي مثل : قصص مغامرات الصعاليك، وقد وظف الجاحظ خاصية الغرابة في قصصه بطريقة فنية خاصة ، ويمكن للقراء تقبلها وفهمها .

5- سمة المفارقة :

تعد المفارقة من سمات السرد العربي القديم « وهي احتواء المتن السردي على المتناقضات ، وهي ذكر الشيء ونقيضه، وظهرت سمة التناقض في أسلوب الجاحظ ، فالجاحظ يمتلك القدرة على الاحتجاج للشيء ونقيضه ؛أن يحتج للبخل ، ويظهره في صورة تدبير وإصلاح ،أو يحتج ضده ، وإنَّ التناقض سمة من سمات نثر الجاحظ واقتران عنده بالمقدرة البيانية وقوة الإقناع ».

نرى بأن أسلوب المفارقة في السرد هو توظيف جمالي يمتع القارئ ويدهشه في نفس الوقت،وقد يؤدي لالتباس فهم المتلقي للقصة،وظهر التناقض كسمة من سمات أسلوب السرد في القصص الاجتماعي عند الجاحظ ؛ حيث قام بتوظيفه حسب غايته من التأليف والكتابة السردية،وركز الجاحظ كثيرًا على ظاهرة البخل، فنراه يؤديها تارة،ويذمها تارة أخرى ،الذي يتعرض له، ولانلومه على ذلك « وماميَّز أسلوب الجاحظ في السرد هو الجمع بين الأضداد (تناقضات) والسخرية والحجاج والغرابة..الخ».

هذه بعض الخصائص السرد العربي القديم ، التي ظهرت في أسلوب السرد عند الجاحظ ، وهنا نشيد بدور الجاحظ الهام في تطور السردية العربية القديمة في الجوانب الفنية والمضمونية .

6-السرد العربي طلبي: من خصائص السرد العربي القديم أنه طلبي « فشكلت عملية التحفيز للأدباء باعثًا مهمًا للكتابة السردية، فلم يؤلف "بيدبا" الفيلسوف "كتاب كليلة ودمنة من تلقاء نفسه ؛ وإنما استجابة لرغبة عبَّر عنها دبشليم الملك وبطلب منه».

إن من عادة الملوك قديمًا طلب سماع القصص والحكايات من الأدباء،وبذلك فمعظم الأعمال القصصية،وكانت تحت رغبة الملوك، وبتوصيتهم وتحفيز منهم مما أدى للتنافس في الكتابة الأدبية في مختلف السرد العربي القديم.

7- الجمع بين السرد والشعر:حصل توظيف الشعر في الأخبار القصصية « فقلما نجد أخبارًا خالية من الشعر، وكان الشعر وسيلة من وسائل تأكيد صحة الخبر إضافة إلى السند».

إنَّ الشعر هو ديوان العرب ، وظل يمارس حضوره في فنون السرد ، ومنها: القصصي والرسائل والرحلات ..الخ ورافق الشعر سرد الأخبار ،وجرى توظيف الشعر لتأكيد صحة الخبر ،وأضفى طابع جمالي على السرد العربي القديم.

8- الحكاية الإطارية:

إن الحكاية الإطارية ضرورية في بعض النصوص السردية، وكما أن «وجود الحكاية الإطارية هو تقليد راسخ اختص به السرد العربي القديم،فغدت الحكاية الخرافية في إطار حكاية ناظمة تتولى ترتيبها، وربطها بالحكاية السابقة ؛ فالحكاية الإطارية لكليلة ودمنة"ليست من نص هندي ؛ وإنما هي إطار عربي من إضافات ابن المقفع».

ظهرت الحكاية الإطارية في القصص على لسان الحيوان،فتكون القصة في إطار حكاية ناظمة تربطها بالحكاية ماقبلها في شكل منظم ،فالحكاية الإطارية هي ليست من نص هندي، وإنَّما من نص عربي ظهرت فيه الروح العربية.

9-التضمين الحكائي والتداخل:

يعد التضمين من خصائص السرد العربي القديم « وظهرت سمة التضمين في نمط الحكايات الطويلة مثل قصص ألف ليلة وليلة ويمكن القول بأن ألف ليلة وليلة هي نتاج تضمين (تداخل) فعدت خرافة شهرزاد نموذجًا عالميًا للحكاية الإطارية ، فهي الحكاية الكبرى، التي تندرج فيها حكايات أخرى متعاقبة (الصفحات الأولى إلى الأخيرة من الكتاب) ومن القصص التي حرص مؤلفوها على ربطها برباط فني واحد السيرة (وهي مجموعة من القصص أكثر ارتباطًا مما هي عليه في ألف ليلة وليلة)».

اختص التضمين بنوع من القصص العربية الطويلة مثلما هو الحال في قصص ألف ليلة وليلة، فورد التضمين في متنها، وشكلت خرافة شهرزاد الحكاية الكبرى من القصص تفرعت عنها مجموعة من الحكايات أخرى.

* **ملاحظة** : تجدر الإشارة هنا إلى أن وجود اختلاف في طبيعة النصوص السردية العربية القديمة ومن الصعوبة جمعها في خصائص محددة مثل :العجائبية.

ومما تقدم نستطيع القول بأن تلك الخصائص السردية المذكورة آنفًا هي التي ميّزت معظم النصوص السردية العربية القديمة ، وأكسبتها خصوصية ، وقلما نجد نصًا سرديًا عربيًا واحدًا اشتمل على كل تلك الخصائص السردية.

ثانيًا – أنظمة السرد العربي القديم:

يمكن حصر أبرز أنظمة السرد في أربعة نظم أساسية استأثرت بالصياغة في النصوص السردية العربية،وهي:

1–نظام التتابع:

يعد نظام التتابع أهم نظام في تاريخ السرد العربي القديم « وقد هيمن نظام التتابع في السير والأخبار والمرويات التاريخية ، واستأثر بالمكانة الأولى في المقامات ، والحكايات الشعبية والخرافية ، ومعظم الأشكال السردية القديمة».

ظهر نظام التتابع في معظم فنون السرد العربي القديم،وفي السير والمقامات..الخ وفرض نظام التتابع وجوده في القصص الشعبية مثل : ألف ليلة وليلة؛ حيث هناك تتابع الليالي في السرد .

2–نظام التداخل:

وأما نظام التداخل «ففيه صيغت المتون السردية على نحو تناثرت فيه مكوناتها في الزمان ثم يقوم المتلقي بإعادة تنظيمها،فالحدث السابق لايكون سببًا للاحق ؛وإنما يُجاوره أو يتداخل معه ،وقد تظهر النتائج قبل الأسباب».

نجد هذا النظام عند أبي حيان التوحيدي في لياليه عندما كان يسرد «فالنظام الذي يحكم الليالي هو التضمين السردي ،ويتعلق بالخطاب السردي ،الذي يتضمن فيه الحكايات الأساسية حكايات أخرى بداخلها ».

وفي نظام التداخل يحصل تداخل للأحداث في القصص أو تتجاور،وقد تتصدر النتائج أسباب الحوادث وبذلك تكون مكونات القصة مبعثرة في الزمان .

3–نظام التوازي :

إن نظام التوازي هو أقل حضورًا في السرد العربي القديم «وفيه تتوازى المادة الحكائية على أكثر من محور، فتتوازى وقائعها في الزمان، وغالبًا مايستغني هذا النظام عن الاستهلال،ونجد هذا النظام في السير الشعبية،حيث تتوازى بعض الأحداث الحكائية فيما بينها».

إنّ مميّز نظام التوازي هو الاستغناء عن عنصر الاستهلال رغم أهميته، ويكون هناك توازي لعناصر القصة كالأحداث مثلًا، ونجد ذلك واضحًا في السير الشعبية كالسيرة الهلالية .

4–نظام التكرار :

اختص نظام التكرار ببعض النصوص السردية العربية القديمة، ويتميز هذا النظام «بأن المتن فيه تعاد روايته، وهذا يؤدي إلى حركة الزمان في الأحداث اللاحقة ،إذ تعاد الخلفية الزمانية والمكانية ذاتها كما تتكرر الوقائع والأحداث والشخصيات».

ماحصل في نظام التكرار هو إعادة رواية متن القصة، ومانتج عنه هو تكرار للحوادث ، وهو ماقد يؤدي لملل القارئ، ونرى بوجود تفاوت في ظهور الأنظمة في النصوص السردية العربية القديمة ، فنظام التتابع هو الأساس في بنية المقامة، وليس أساسيًا في الحكاية الخرافية، ولاحظنا بأنّ الزمان هو عنصر مشترك بين هذه الأنظمة السردية.

ومنه فقد اتصف السرد العربي القديم بلون خاص ميَّزه عن أنواع السرد في الآداب الأجنبية ،وانفرد السرد العربي بخصائص وسمات محددة أكسبته لونًا خاصًا.